

توطئة

كان أول إكتشاف في لشغفي بالفنون القديمة حينما كنت أدرس في القدس ، خلال عقد الستينات من القرن الماضي . ففي تلك المدينة العتيقة إفتنت بالمباني الأثرية بالذات ولا سيما المباني الإسلامية التي لا تُحصى عدداً ، والمتواترة زمنياً منذ القرن السابع وحتى القرن العشرين ، ولما كانت هذه المباني الأثرية جزءاً من تراثنا فقد ملأتني فخرًا ، وغرست فيّ بذور التوق للتعرف إلى إنجازات الفنون الإسلامية .

وقد تجسّد هذا الوعي المتوقّد في شروعي بجمع القطع الفنية الإسلامية ، مُنذ منتصف السبعينيات من القرن الماضي . ومُنذ البداية كانت لدي الرغبة في أن أشرك الآخرين في حماسي لهذه الآثار المذهلة والمتصلة إلينا من الماضي ، وهي رغبة شاطرني إياها زوجتي الشيخة حصة صباح السالم الصباح ، التي غدت فيما بعد مديرة لمتحفنا . وقد توجّهت جهودنا بعرض المجموعة في مبنى خاص بها في مجمع متحف الكويت الوطني ، الذي أُفتتح في فبراير 1983م ، حيث ظلّت معروضة هناك حتى العدوان العراقي في العام 1990م وتتميز المجموعة بإتساعها وبشموليتها ، كما أنها تنمو بإطراد على مرّ السنوات .

ثم إنَّ ولعي بفنون الصياغة ، كان يعني منذ البداية أن تتشكّل الحلي الإسلامية ، والهندية منها بالذات ، فرعاً حيويًا في مجموعتي . وقد نما هذا الفرع بوتيرة متسارعة بشكل عام طوال هذه السنوات ، وكان من الطبيعي أن يتطور وعيي مع تطور المجموعة ، ولتغدو بذلك عملية الانتقال أكثر دقة .

ولعل العقبة الكبرى أمام رغبتني في جمع الحلي الهندية المبكرة والمهمة تمثلت في وجود عدد محدود من المجموعات ، أو الإصدارات التي يمكن الاسترشاد بها ، خِلافًا للفنون الأخرى . ولم يكن أمامنا سوى الاستعانة بالخبرة ، والاعتماد على الحس الجمالي ، والإحساس بندرة القطع المنتقاة وجودتها . غير أنّ المجموعة بدأت تصل تدريجيًا ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، إلى مجموعة ذات قيمة جديرة بالإعتبار مما أمكن معه دراسة الخصائص والجوانب المختلفة للتحف ، والتي أظهرت

العلاقات والتباين فيما بينها ، وألقت الضوء على الكثير منها ، الأمر الذي جعلنا في موقع مميز أهلنا لإلتقاء القطع بحكمة ودراية أعمق ، رغم أجواء المنافسة المتزايدة .

وفي الواقع ، أنه كان من الطبيعي بالنسبة لي كمواطن من منطقة الخليج ، أن أشعر بإنجذاب نحو الهند والفن الهندي ، نظراً للإلفة الطويلة بالمشغولات المجلوبة من شبه القارة الهندية ، إذ أنّ لأهل الخليج معرفة قديمة بالهند ، وتربطهم بها صلات طبيعية ، وتقارب وثيق مغرق في القدم ، نشأ عن التجارة البحرية الممتدة عبر عصور قديمة ، استمرت حتى القرن الحالي . هذا إلى جانب علاقة خاصة أخرى ومهمة تتعلق بصناعة المجوهرات ، تمثّلت في لآلئ خليجنا التي اشتهرت عالمياً بأنها الأفضل والتي كانت الهند وجهتها الأكثر أهمية .

غير أنّ أكثر ما جذبني هو فن المصوغات الهندية الذي دفعني أيضاً نحو استكشاف أبعاده . فلا شك أنّ حياة أفضل ما أنتجته هذه الأعمال الفنية تحول دون ضياعها ، أو بقائها طي المجهول كما أنها تمكن المهتمين بهذه الأعمال من دراستها . وإني لعلى ثقة من أن إتاحتها للجمهور بهذا الشكل - من خلال الكتب والمعارض - ستمكن العديد من الباحثين والطلبة في العالم ، من إستشراق آفاق جديدة غير مسبوقه ، وتسهم في تحفيز أبعاد لَمَّا تُعَرَف بعد لدى قطاع واسع من الناس حول العالم . وهذا في رأيي أفضل طريقة للإحتفاء بالفنانين المجهولين في جَلَّهم ، وتكريم تراثهم ، أولئك الذين تمكنوا - أثناء سعيهم في مهنتهم لكسب رزقهم - من توريث هذا القدر من البهجة والفرحة للكثيرين .

ناصر صباح الأحمد الصباح

كتاب ذخيرة الدنيا - فنون الصياغة الهندية في العصر المغولي

